العربية الفصحى في ظل تحديات اللهجة

م.م. بشير داود سليمان
مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية

مقدمة

لقد عُرِفَ قديماً أن لسياسة وشخصية الحاكم نصيب في الحفاظ على اللغة العربية أو فسادها ، وهكذا عرف من المأمون مثلاً تشدده مع كتابه ومعاونيه وعمّاله في أمر اللغة وسلامتها من اللحن ، وقد روى لنا ياقوت الحموي كيف أن إسحاق أبن إبراهيم المصعبي حاكم مدينة بغداد على عهد المأمون ، قد اضطر بسبب لحن وقع منه في حضرة الخليفة أن يتعلم القواعد على النحوي هشام بن معاوية .

ومنذ عهد المعتصم حصل الأتراك على نفوذ مطرد في سياسة دولة الخلافة وباستثناء الفتح بن خاقان لم يكن معظم هؤلاء الرجال متحلين بثقافة علمية كما لم يكن لديهم طموح إلى الأدب ، لذلك فقد كان لهم إسهام واضح في خفض المستوى اللغوي في دوائر القصور . وببلوغهم منصب السلطان يبدأ عصر الانحلال في تاريخ العربية .

وبسبب هذه السياسات والشخصيات التي تسلمت الحكم نشأ ما أصطلح على تسميته (العربية المولدة) أو اللهجة العامية والتي شاعت في الأقطار العربية حتى يومنا هذا ، والفرق الأساسي الذي يميزها عن العربية الفصحى إنما يقوم على أساس تغيير في تكوينها نتيجة إسقاط الأعراب عنها ، وإبدال بعض الحروف بحروف مولدة ليست من أحرف العربية ، ونعني بإسقاط الأعراب حذف الحركات الأعرابية من على الكلمات

فلا يمكن أن نميز بين الفاعل والمفعول ، وقد أورد الجاحظ في كتاب (البيان والتبيين) جملة من الأمثلة على هذا الكلام الملحون .

من هذه المقدمة البسيطة جاء هذا البحث ليكشف عن التحديات التي تواجه اللغة العربية الفصحى والمخاطر التي تحيط بها ومن أبرز هذه المخاطر والتحديات هي اللهجة العامية التي حلت محل الفصحى في كل أرجاء الوطن العربي ، فقلما نجد من يتكلم باللغة العربية الفصحى في الوطن العربي . إضافة إلى المخاطر الكثير التي تحيط باللغة العربية من كل جانب والتي لايسع الباحث أن يذكرها لكثرتها في هذا البحث البسيط .

الباحث

تاريخ اللهجة العامية :

ليست اللغة رابطة بين أعضاء مجتمع واحد بعينه ، إنما هي عامل مهم جداً للترابط بين جيل وجيل ، ولذلك فانتقال الثقافة عبر العصور لايأتي إلا بهذه الوسيلة[1] .

ولهذا فقد كان للحدث القرآني تأثيره العظيم في العربية ودفعها خطوات فسيحة إلى الأمام . فقد عملت لغة التنزيل على توحيد هذه اللغة ، ومعلوم أن الأمصار كانت تقرأ القرآن بقراءات مختلفة ، وسبب هذه الاختلافات أن لغات الأقاليم قد فعلت فعلها في القضية . فما كان من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان (رضي الله عنهما) ألا أن يعملا على توحيد هذه القراءات ليجمعوا المسلمين على لغة واحدة .

فقد ذكرت الروايات أن عمر بن الخطاب منع عبد الله بن مسعود أن يُقرئ الناس بلغته الهذلية حين سمع أحدهم يقرأ الآية الخامسة والثلاثين من سورة يوسف ((وليسجننّه عتى حين)) بدلاً من ((حتى حين))[2] .

ولم يكن شيوع اللهجات العامية مختصاً بعصر دون آخر ، أو قل أن مشكلة الفصيح والعامي قائمة في كل عصر في التاريخ الإسلامي .

ولايمكن أن نعد شيوع اللحن دليلاً على نشوء العامية ، فقد عرف اللحن في أوائل العصر الإسلامي ، وقد ظهر على ألسنة الطبقة المثقفة المتعلمة .

ففي الأخبار أن عمر بن الخطاب أدب أولاده بسبب اللحن[3] ، وأن عبد الملك بن مروان كان يحذر أبناءه من الوقوع في اللحن ، فان اللحن في منطق الشريف أقبح من آثار الجدري في الوجه .

وقد فطن النحاة إلى أن اللحن قد وقع عند قرّاء القرآن ، فهم يعيبون على نافع قارئ أهل المدينة أنه قرأ (معائش) بالهمزة وكان حقها أن تقرأ بالياء[4] .

وبسبب شيوع اللهجات فقد استمرت القراءة الشاذة بالرغم من إلزام الناس بالأخذ بما أجمع عليه المسلمون ، فقد تضمنت القراءات الشاذة الشيء الكثير من اللهجات والتي كانت سائدة في ذلك العصر .

ولهذا فأن المتتبع يلاحظ أن اللهجات العامية قد رافقت الفصيح في سائر العصور ولعل ذلك كان بسبب الدعوة القائلة بوجود المشكلة ولايحسب القارئ أن المشكلة اللغوية وما ينتج عنها من مشكلات ثقافية هي وليدة العصر الحديث[5] .

ولكن يمكن القول أنها اليوم أعقد مما كانت عليه بالأمس وذلك لأن المجتمع العربي يواجه حضارة معقدة تلزمه أن يكون مزوداً بالآت للأخذ بنواحي هذه الحضارة المتعددة الأطراف . ومن أهم هذه الآلآت والأدوات هي مسألة اللغة.

فلا تغني لهجة اليوم الدارجة أي العامية ، كما أن الفصيح لم يعد اللغة التي يملكها جميع الناس ويتصرفون في أمرها . ولذلك فالتعلم والتلقين واجب[6] .

ويمكن أن تقول أن العامية عرفت في أيام الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وقد نسب للكسائي النحوي أنه ألف رسالة في لحن العامة[7] ، وقد ذكر صاحب الأغاني أن سبب نسبة المغني المشهور إبراهيم الموصلي إلى الموصل أنه كان متى يغني في شرب وهو يروي هذين البيتين :

أن جت من طرف موصل أحمل قلل خمريا
من شارب الملوك فلا بد من سكريا[8] .

ولعل كتب الجاحظ خير دليل لمعرفة اللغات واللهجات الخاصة فقد سجل الجاحظ نماذج من هذه اللهجات ، وفطن إلى مصطلحات العامة وأصحاب الحرف، وحسبك أن تعرف أن الجاحظ أشار إلى لغة الأطفال وكيف ان الطفل يستخدم ألفاظاً خاصة به[9] .

والأمثلة على هذه الألفاظ كثيرة في كتابه المشهور (البيان والتبيين) وقد أشار فيه إلى استعمال الدخيل الفارسي في النصوص الفصيحة وهو الفارسي الذي لم تألفه العربية من قبل .

والذي يقرأ كتاب (البخلاء) يلاحظ كيف أن الجاحظ كان ينقل اللفظة العامية التي كان يتحدث بها الناس فقد ذكر (التشريب والرزة والجلة والثريد والبوش والهريسة والكرنبيه والفجلية والبالوعة والدوشاب)[10] .

واقع العاميات العربية :

تعتبر العاميات العربية مزيجاً من الكلمات الفصيحة المحرفة قليلاً أو مفردات أعجمية أو أصول أخرى لاتعرف هويتها ، وتعتبر السمة التي تشترك فيها كل العاميات العربية هي سمة افتقارها إلى القواعد الثابتة المحددة سواء على الصعيد الصوتي أو التركيبي أو الدلالي ، أم على الصعيد التركيبي أو النحوي، فأن الخلاف الرئيسي بين العامية والفصحى مرده إلى الخلاف في العربية المولده منذ القرن الثالث الهجري ، والذي نشأ عن إسقاط الإعراب من لغة التخاطب الحية مما جعلها لغة تحليلية ، على العكس من الفصحى التي ظلت حتى يومنا الحاضر لغة تركيبية تستخدم وحدات صوتية متصلة بفضل حفاظها على حركاتها الاعرابية[11] .

وعلى الصعيد الدلالي يمكن رد جميع الخلافات القائمة بين اللهجات العربية باستثناء الدخيل الأعجمي . إلى لهجات القبائل العربية مع بعض الفروق المحلية والتي تعود إلى بقايا اللهجات واللغات التي كانت سائدة قبل الفتح الإسلامي .

وبفضل الله ثم بقاء اللغة الفصحى هي السائدة في أقطار الوطن العربي . لم يبلغ حد التفاوت بين اللهجات العربية في أي وقت حداً يجعل التفاهم بين الناطقين العرب أمراً مستحيلاً .

لذا فأن الدعوات المنادية بإحلال اللهجات المحلية محل الفصحى لم تنجح على الرغم من الحجج والذرائع التي كانوا يطلقونها .

ولابد من أن نعرف أن كل لغة تشتمل على عدة مستويات في الاستعمال اللغوي ، ويمكن أن نطلق عليها أسم الأساليب اللغوية ، فأسلوب أهل البادية يختلفا عن أسلوب الريف ، وأسلوب الصناع يختلف عن أسلوب العمال غير المهرة ، لذلك قد يستعمل الفرد الواحد أكثر من أسلوب واحد في حياته اليومية ، بغض النظر عن مستواه الثقافي .

والذي يتتبع يجد أن هناك عوائق تحول دون جعل العامية لغة رسمية ، تتمثل في أن الحدود السياسية القائمة بين أقطار الوطن العربي لاتتفق والحدود اللغوية، وذلك لأسباب تاريخية . فعلى سبيل المثال تشترك المناطق الشرقية من المملكة المغربية مع مناطق الغرب الجزائري بلهجة واحدة وهكذا بالنسبة لباقي أقطار الوطن العربي[12] .

والتخلي عن الفصحى لمصلحة العامية ، له وجه أكثر خطورة وأبعد أثراً لارتباطه بمسألة التقدم والرقي العلمي والحضاري، فاللغة ليست أداة تعبير فحسب، بل هي أداة تفكير وهي علاقة طردية بين اللغة والتفكير ، فكلما سما مستوى التفكير سما مستوى اللغة والعكس بالعكس لذلك لانجد أحداً يعبر عن مضامين فكرية أو أدبية او فلسفية بلغة عامية ركيكة ، بل إن هذه المضامين تضطره حتى للأقتراب في حديثه من المستوى الفصيح ، وهو ما يحدث عادة في المحاضرات والندوات والمؤتمرات .

ونلاحظ ان القرآن الكريم قد أكد على لغته من ذلك المستوى الرفيع الذي يتناسب مع المضامين السامية التي جاء بها ، فأنه لم يكتف بتسمية اللغة التي نزل بها العربية ، بل ذكر أيضاً المستوى الذي اختاره من تلك اللغة في قوله تعالى : ((وهذا لسان عربي مبين))[13] والبيان يعني الفصاحة أي أن القرآن الكريم قد نزل باللغة العربية في أرفع مستوياتها ، ويذكر تعالى في موضع آخر ((قرآناً عربياً غير ذي عوج))[14]

والعوج في اللغة هو ضد الاستقامة ، فالعامية إذن غير قادرة على الأداء في مجالات الفكر والعلم ، وذلك لعدم فصاحتها واستقامتها .

واللغة الفصحى تحتوي على ذخيرة علمية وحضارية ولها القدرة على التفريغ والاشتقاق ، وقد وضع لها الأولون قواعد وأوزان ، مما جعلها طيعة في جميع المجالات ولم تعجز الفصحى حتى اليوم عن تزويد العلماء والدارسين العرب بما يحتاجونه من مصطلحات في أبحاثهم ومختبراتهم .

أما العامية فلها شان آخر في هذا المجال فلا هي تمتلك الذخيرة العلمية من الألفاظ والمفردات ، ولا هي قادرة على الاشتقاق ، ولا هي قد خضعت للدرس والتصنيف والتقعيد مثلما حصل للفصحى .

وإزاء هذا كله فأنه ليس أمام اللهجة العامية سوى أحد حلين : فأما أن يتم تطيعمها بالمصطلحات الأجنبية . وأما أن تتنازل عن هذه المهمة لأحدى اللغات الأجنبية ، وفي كلا الحالتين ستكون النتائج وخيمة على مستقبل اللغة العربية[15] .

اللهجة العامية ودورها في تمزيق المجتمعات :

كان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام على علم بوجود اختلافات بين لهجات القبائل العربية ، وإذا درسنا لهجة كل قبيلة وحدنا العناصر التي تميزها بشكل دقيق عن غيرها ، غير أن تلك الاختلافات لم تكن لتظهر إلا عند المعنيين بعلم اللغة ، وكانت جميع اللهجات مفهومة لدى جميع القبائل ، فقد كانت معلقات الشعراء قبل الإسلام مفهومه عند الجميع وقد بجَّلها جميع العرب في الجاهلية مع أنها كانت من تأليف شعراء من قبائل مختلفة : فامرؤ القيس من كنده ، وزهير وعنترة ولبيد من قيس ، وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من ربيعة[16] .

والذي يهمنا مما سبق هو أن تلك الفوارق بين لهجات القبائل العربية كانت ستؤدي إلى ظهور لهجات مختلفة ، وكذلك في المناطق التي انتشر فيها الإسلام

وأصبحت فيها اللغة العربية هي اللغة الغالبة ، وهي مناطق العرب في الوقت الحاضر ، وبما أن انتشار اللغة العربية بين غير العرب في البلاد المفتوحة لم يكن محصوراً في فئة واحدة من فئات الأعمار . فقد أدى ذلك إلى اكتسابها بدرجات مختلفة من الأتقان والكفاية ، وعليه فقد كانت لغة (المولدين) مشوبة باللحن في العربية ، ولذلك أصبحت للعربية لهجتان : لهجة العرب الفصحاء وقد أطلق عليها أصطلاحاً في علم اللغة (لغة الخاصة) ولهجة (المولدين) التي تلحن في لغتها والتي عرفت فيما بعد عند علماء اللغة بـ (لغة العامة) ومن هنا جاء الأصطلاح الذي نحن في صدده (اللهجة العامية) .

وقد عرّج الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)[17] إلى ذلك فقال : (العامية هي لغة المولدين والبلدين)[18] وقد قام علماء اللغة بتجديد عناصر (لحن العامة) ووضعوها في مؤلفات بعنوان (لحن العامة) ومنهم أبو عبيده ت (210هـ) والمازني ت 249هـ وأبو حاتم السجستاني ت 248هـ والكسائي[19] .

ومن أبرز ميزات لغة العامة ، الخلط بين الأصوات المفخمة والمرققة وإسقاط الهمزة في بعض مواقعها وخلط الحركات العرابية والصرفية[20] .

ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وانتشار العرب فيها . أصبحوا أقلية من حيث العدد (باستثناء الجزيرة العربية) ولهذا فقد تأثرت لهجتهم المحلية بلحن العامة وظهور اللحن فيها بشكل حفَّز بعض المعنيين بوضع مؤلفات تهدف إلى تصحيح ذلك اللحن ، وعرفت تلك المؤلفات باسم (لحن الخاصة) مثل كتاب أبي هلال العسكري ت395هـ وكتاب الحريري ت 516هـ[21] ، وزاد في (لحن الخاصة) انحسار المستوى التعليمي والثقافي مع بداية ضعف الدولة العباسية ، وتدني استعمال الفصحى بين غالبية الناطقين بالعربية[22] .

وكانت لهجة أهل المغرب أكثر اللهجات المولدة اختلافاً عن الفصحى ، فقد ورد في كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي ت763هـ أن (لغتهم عربية غير أنها مخالفة لما ذكرنا في الأقاليم)[23] .

ويتضح مما تقدم أن اللهجات العربية العامية المعاصرة هي امتداد لتلك اللهجات المولدة ، إثر انتشار العرب مع الإسلام في أمصار الدولة الإسلامية[24].

ومهما يكن من أمر حول أصل اللهجات العربية المعاصرة فلايحتاج اختلاف بعضها عن بعض إلى تدليل ، ولكن لابد من القول أن احتكاك العرب مع الأجانب في الوطن العربي . خلال القرون الماضية عن طريق احتلال المستعمرين له . أو عن طريق التجارة أو الدراسة وغيرها ، قد أضاف إلى الفروقات الأخرى عناصر أخرى غريبة متعددة الأصول . وذلك حسب طبيعة ونوع الاحتكاك . وتشابه الفروقات بين اللهجات العربية المعاصرة من حيث النوع مع الفروقات المتوافرة بين لهجات اللغات الأخرى في العالم . إلا ان العناصر المشتركة بين كل اللهجات العربية تفرق عناصر التباين والاختلاف من حيث العدد والنوع ، وفي هذا الصدد تتميز العربية عن باقي اللغات العالمية . فقد أدت الاختلافات في لهجات العالم في العصور السابقة إلى ظهور لغات منفصلة ومستقلة عن تلك اللهجات ، أما لهجات العربية فقد حافظت على ارتباطها مع بعضها وذلك بسبب الارتباط بالفصحى والقرآن الكريم .

وقد أدى هذا الارتباط الوثيق بالفصحى والقرآن الكريم إلى وحدة عربية وقومية ولغة عربية واحدة لاتختلف بين لهجة وأخرى ، وهذا أدى بالتالي إلى تماسك أجزاء الوطن العربي مع ما وضعه المستعمرون من حدود سياسية لفصل الأمة العربية والسيطرة على مقدراتها من خلال أضعافها تحت شعار (فرق تسد).

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى انتشار اللهجة العامية في الوطن العربي وأدت بالتالي إلى تفكيك المجتمعات العربية تلك البرامج التلفزيونية التي ظهرت باللهجات المحلية ، مما أدى إلى انتشار اللهجة المحلية على مستوى الوطن العربي[25] .

وهذا الموضوع يقودني إلى التكلم عن وسائل الأعلام وأثرها على اللغة العربية ، فوسائل الأعلام تتوجه إلى الجماهير منذ بدايتها ، وبذلك فإن أصلح المستويات اللغوية

لها ، هو ما يعود على بدء إلى المدركات الشاملة والانطباعات الفنية ، والعربية الفصحى المشتركة هي السبيل الوحيد إلى ذلك ، لأنها لغة الحضارة الإعلامية . وهي كذلك بالقياس إلينا لأنها تقوم على استعادة الخصائص العربية العامة والإسلامية الخالصة . وكذلك فإن هذه اللغة المشتركة التي تتجاوز حدود القطر العربي إلى جميع الناطقين بالعربية .

وتتسم العربية المشتركة بسمات إعلامية في مقدمتها أنها لغة مفهومة لدى العامة . حيث لم تحل اللهجات الشعبية دون فهم ما يسمعونه من نصوص الفصحى البسيطة ، كما أنها لغة ديمقراطية لاتخاطب الكبير بخطاب الصغير بخطاب آخر ، ولاتخلط بين ضمير الفرد وضمير الجمع ، وهي لغة عالمية اصطنعتها شعوب متعددة ، منذ أن استقرت الدول العربية في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث من الهجرة ، فأخذت بالطابع العربي ديناً ولغة وثقافة وحضارة ، ويذهب الدكتور إبراهيم أنيس إلى أن خصائص العربية قد جعلتها أوسع اللغات انتشاراً في العالم . ويعدها المحدثون من اللغويين ثالثة الثالث العالم الحديث من حيث انتشارها وسعة مناطقها .

بداية استعمال اللهجات العامية بدل الفصحى :

في بداية القرن التاسع عشر بدأت جذور هذه القضية. أعني قضية استعمال اللهجات المحلية بدل الفصحى مع ظهور بعض كتاب الرواية العربية بكتابة الفكاهة في المجلات مثل : يوسف الشربيني في روايته (هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف) . و (أزجال حسن الآلآتي) وفي بعض ما كتبه كتاب المقالة لتثقيف العامة وتوعيتهم سياسياً . ويعتبر يعقوب صنوع كاتب المقالة العامية الأول، وقد تبعه آخرون على هذا المنوال أمثال : عبد الله النديم ومحمد النجار[26].

وقد أثارت هذه المقالات ردوداً شديدة النبرة من لدن أنصار الفصحى تنحى ذلك المنحى وتدافع عن اللغة العربية الفصحى وتعيب تلك المقالات التي كتبت باللهجة

العامية ، وصار كل فريق يدعم موقفه بالحجج لإثبات ما يريد ، وأمتد الحوار إلى النصف الأول من القرن العشرين ، وقد أرتبط هذا النقاش مع حركات التحرير من الاحتلال والاستعمار ، وأخذ هذا النزاع حول اللهجات المحلية والعظمى بعداً إضافياً جديداً ، وبخاصة أن إدارة الاستعمار وبعض المستشرقين أشتركوا في هذا الصراع ، متبنين وجهة النظر الداعية الإحلال اللهجات المحلية بدل الفصحى ، ومن هؤلاء المستشرقين : وليم ولكوكس وفلهلم سبيتا وسيلدون ويلحور وغيرهم . ومن أبرز النقاط التي أثارها انصار اللهجات المحلية هي :

- اختلاف اللهجات بعضها عن بعض .
- اختلاف اللهجات مجتمعة عن الفصحى .
- عدم استعمال غالبية العرب وقتئذٍ للفصحى (انتشار الأمية) .
- قرابة اللهجات المحلية من نفوس الناطقين بها .
- صعوبة تعلم الفصحى .

وفي المقابل ردّ أنصار الفصحى محتجين بأن :

- اللهجات المحلية ليست لغات ، ولاترقى أليها ، ولاتستحق أن يطلق عليها هذا الأسم .
- وجود اللهجات في الوطن العربي دليل على تدني مستوى الثقافة والتعليم .
- استعمال اللهجات المحلية يؤدي إلى تشتيت الأمة وتمزقها .
- التراث العربي الإسلامي هو بالفصحى .
- استعمال اللهجات المحلية سيقطع الأجيال القادمة عن تراثها وعن القرآن والإسلام .

ومن أبرز أنصار اللهجات المحلية : الخوري أمين شميل ، وجميل صدقي الزهاوي ومارون غصن ، وقاسم أمين ، وجورج كفوري ، وأنيس فريحة، وسعيد عقل ، وسلامة موسى ومحمود تيمور . ولويس عوض . وطه حسين .

أما أهم انصار استعمال الفصحى فهم : أمين فكري بك ، وإبراهيم اليازجي وعزة دروزة ولويس شيخو والخوري علي صالحاني وعيسى أسكندر المعلوف . ومصطفى صادق الرافعي وعبد الوهاب عزام ، وعباس محمود العقاد وآخرون[27] .

وفي الحقيقة لم يكن عدد الداعين لإحلال اللهجات العامية بدل الفصحى كبيراً، ولكنهم على قلتهم أحدثوا ضجيجاً كبيراً . وذلك لأن دعوتهم هزت قيماً أساسية لدى المفكرين الآخرين ولدى المجتمع ، ولهذا كان يتصدى أكثر من كاتب واحد من أنصار الفصحى لمقالٍ واحد يدعو إلى تكريس اللهجات المحلية . وتنم تلك الدعوة إلى بث الأقليمية والانفصالية بين مجموعات القومية الواحدة .

وقد تزامنت تلك الدعوة في مصر مع الدعوة إلى فرعنة مصر من جديد ، وعزلها عن باقي الوطن العربي في إطار محاولة لتمزيق العرب إلى قوميات متعددة، على غرار ما حدث في أوربا سابقاً بانحلال الإمبراطورية الكبرى فيها . ولا عجب في اتهام أولئك الداعين إلى إحلال اللهجات المحلية بدل الفصحى بالعمل على تغريب الأمة العربية ، ومحاولة قتل القومية العربية الواحدة ، وبالفعل فقد رحَّب سلامة موسى بأخلاق وحضارة وثقافة ودين الغرب . وكان الرد عليه بان ذلك سيؤدي إلى تمزيق وحدة العرب اللغوية ووحدتهم القومية . وفي استفتاء أُجري مطلع القرن الماضي مع عدد من الكتاب العرب أمثال جبران خليل جبران ، واسكندر المعلوف ومصطفى الرافعي وغيرهم ، وكان إجماعهم على أن الفصحى هي رمز للوحدة العربية وأداة المقاومة الاستعمار[28] .

اللغة العربية الفصحى إداة التوحيد للأمة العربية :

يعتبر تقنين اللغة العربية الفصحى بين أقطار الوطن العربي عنصراً أساسياً في وحدة الأمة وتكاملها ، ويساعد نجاح هذا التقنين على دعم وحدة الأمة العربية اللغوية بمستوى سهولة الاتصال بين الأقطار العربية التي تتألف منها وتتألف بها ، ويساعد

أيضاً على رفع مستوى الاتصال بين الوحدات السياسية انفتاح الحدود بينها وتنقل المجموعات عبر الحدود ، وتبادل المطبوعات من صحافة وكتب ونشرات ، وتبادل البرامج التلفزيونية باللغة الفصحى ، فأن استعمالها في المؤسسات العلمية والحكومية مثل التربية والتعليم والتعامل الرسمي بها يشكل العمود الفقري في ترسيخ الوحدة اللغوية وتكاملها ويخفف من عوامل التفكك اللغوي الذي يؤدي بالتالي إلى تمزيق الوطن العربي .

وعلى الرغم من أن الوحدة السياسية بين الأقطار العربية قد أصابها التعثر كثيراً ولازالت هذه الوحدة السياسية مطلباً ينادي به دعاة الوحدة ، إلا أن الوحدة اللغوية أمرُ راسخ الأساس ، وتتبع القيمة الوحدوية للعربية أولاً وقبل كل شيء من منزلتها بالنسبة للإسلام والقرآن الكريم ، ومن ثم من رفعة منزلة التراث العلمي معلماً من معالم الأصالة العربية للمسلم وغير المسلم من العرب على حدٍ سواء .

ومع أن شان العرب في العالم الآن غير شان أسلافهم في الماضي إلا أن منزلة العربية بين معظم العرب لم تتغير بتغير منزلتهم الدولية ، وفي هذا يقول الدكتور حازم نيسبه : (إن العربية هي عامل رئيسي في تكامل المجتمع العربي المعاصر) . ولانجد أياً من كتاب القومية العربية إلا ويجعل اللغة هي صلب الوحدة العربية بالإضافة إلى أن كتاب الوحدة الإسلامية من العرب يجدون في العربية وسيلة ذات دلالة رمزية على الوحدة في الوطن العربي . ومن أمثال هؤلاء الكتاب الدكتور ابراهيم أنيس في كتابه (اللغة بين القومية والعالمية)[29] وجلال السيد في كتابه (حقيقة الأمة وعوامل حفظتها وتمزقها)[30] وعمر فروخ في كتابه (القومية والفصحى)[31] .

والمتَبع للغات يجد أن العربية الفصحى أكثر انتظاماً في بلدان الوطن العربي من اللغات الأخرى ، فبينما نجد معجماً للانكليزية البريطانية وآخر للانكليزية الأمريكية لانجد معاجم مختلفة لفصحى العربية لمنطقة أو دولة ما ، وذلك بسبب الدرجة العالية من الانتظام والاتساق الفصحى العربية عبر الأقطار ، أما في اللغات الأخرى

المستعملة في أكثر من دولة ، فلكل منها فصحى تختلف في بعض مناحيها عن الفصحى في كل من الأقطار الأخرى ، ففي الانكليزية مثلاً هناك فصحى بريطانيا وفصحى الولايات المتحدة . وفصحى استراليا ومن هذه الاختلافات ما يكون في قطر ويكون نفسه غير فصيح في قطر آخر ، أما العربية فلا تظهر مثل هذه الفوارق في فصحاها[32] .

أسباب انتشار اللهجة العامية وسبل معالجتها :

يعتبر من أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار اللهجة العامية في الوطن العربي هي تلك البرامج التلفزيونية التي تظهر في جميع قنوات الوطن العربي باللهجات المحلية . ولذلك يمكن أن أقول أن وسائل الاعلام لها أثر كبير في نشر العامية لأنها موجه إلى الجماهير كبيرهم وصغيرهم ، ومن الطبيعي أن الإنسان يميل إلى الأسهل لذلك وضعت الفصحى جانباً وقدمت العامية على الفصحى .

وكذلك من الأسباب الأخرى التي أدت إلى انتشار العامية هي تلك السياسات التي تتبعها الأنظمة العربية ، وقد أشرت في المقدمة كيف أن سياسة الدولة لها الدور الأساسي في الحفاظ على اللغة العربية ، إذ تشير الدراسات الحديثة إلى الأنظمة العربية تميل إلى تفضيل اللهجات العامية واللغات الأجنبية في مجالات الحياة المختلفة كالإعلام والتعليم وتشجيع العامية في الإذاعة والتلفزيون ولاتحرك ساكناً في منعها أو التقليل منها ، وذلك بسبب عدم وجود سياسة لغوية معلنة في الأقطار العربية ، عدا ما ورد في قوانينها من أن العربية هي اللغة الرسمية للبلاد ، لابل أن هذه الأنظمة قد مارست حرباً ضد اللغة العربية وذلك بتشجيعها على اكتساب العلوم والمعارف بالغات الأجنبية كالانكليزية والفرنسية ، إذ ان اللغة الأجنبية تلقى الترحيب والتعظيم في بلادنا فضلاً عن أن أبناء المسؤولين والنخب يتعلمون في مدارس أجنبية أو مدارس خاصة ذات مناهج أمريكية أو بريطانية أو فرنسية . وهي لاتخصص إلا ساعتين لتعليم اللغة

العربية في حال كون تعليم العربية وارداً في مناهجها . هذا على مستوى الأقطار العربية، أما على المستوى الدولي فهناك حرب أخرى أكثر خطورة ضد اللغة العربية وهو ما تمارسه المنظمات الدولية ، إذ تشير التقارير الواردة إلى أن منظمة الأمم المتحدة تتجه إلى إلغاء اللغة العربية من بين اللغات العالمية الرسمية في المنظمة لأسباب منها :

- أن ممثلي الدول في المنظمة قد هجروا استعمال اللغة العربية الفصحى فهم لايستعملون إلا الانكليزية أو الفرنسية . أما العربية فلا تخطر لهم ببال .
- غياب مترجمين أكفاء باللغة العربية .
- أن الأنظمة العربية لم تفِ بالتزاماتها بدفع نفقات استعمال اللغة العربية في المنظمة ، وهذا فضلاً عن السياسات التي تتبعها الدول الأجنبية ضد اللغة العربية بإهمالها وتهميشها وتهجينها بمصطلحات وتعبيرات أجنبية.

وبفعل ما يسمى بالغزو الثقافي فإن هناك كما تشير الدراسات الحديثة والاحصائيات العلمية ما بين 250 و 300 لغة تنقرض سنوياً ، ولا عجب إذا قلنا أن اللغة العربية ربما ستكون من بين هذه اللغات المنقرضة وذلك بسبب إهمال أهلها لها أو بسبب السياسات التي تتبعها الأنظمة العربية الموجه ضد اللغة العربية من حيث يعلمون أو لايعلمون .

لذلك علينا أن نحمي لغتنا من خطر اللهجات العامية المنتشرة في جميع لأقطار العربية . ومن أهم السبل لمعالجة هذا الخطر هو أن تكون هناك سياسة معلنة وحكيمة للأنظمة العربية في كيفية المحافظة على العربية الفصحى ، من خلال التشجيع على بث البرامج والمسلسلات بالفصحى بحيث يكون ذلك بداية من الأطفال من خلال إنتاج أفلام كارتونية بالفصحى وتعليم الأطفال في المدارس الفصحى أو محاسبة ومعاقبة كل

من يتكلم باللهجة العامية في الإذاعة والتلفزيون أو على مستوى سياسة الدولة أو من يمثلها .

الهوامش

- القرآن الكريم

1. فقه اللغة المقارن ، د. إبراهيم أنيس ، ص230 ، دار العلم للملايين ، بيروت.
2. الكشاف للزمخشري ، سورة يوسف .
3. الارشاد 20/1 . الياقوت الحموي .
4. ميزان الاعتدال 227/3 . للذهبي .
5. فقه اللغة المقارن ، ص234 .
6. المصدر نفسه ، 234 .
7. ما تلحن فيه العوام ضمن مجموعة تضم ثلاث وسائل بتحقيق عبد العزيز المهيمن ، سنة 1344هـ .
8. الأصفهاني الأغاني 156/5 ، دار الكتب .
9. البيان والتبيين 92/1 ، الجاحظ .
10. النبلاء 67 ، الجاحظ .
11. المستقبل العربي ، العدد 106 ، سنة 1987 ، ص76 .
12. المصدر نفسه .
13. سورة النحل آية 103 .
14. سورة الزمر الآية 28 .
15. المستقبل العربي ، العدد106 ، سنة 1987 ، ص77 .
16. المستوى اللغوي للفصحى واللهجات ، ص53 .
17. البيان والتبيين 111/1 .
18. العامية والفصحى في القاهرة والرباط ، ص98 .
19. تاريخ العامية وكتابتها ، ص270 .
20. ينظر مجلة المستقبل العربي ، العدد106 ، ص98 .

21. في لغتنا والحياة ، ص78–79 .
22. ينظر مجلة المستقبل العربي ، العدد106 ، ص98 .
23. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص138 .
24. قضايا اللغة المعاصرة ، المجلة العربية للدراسات اللغوية ، العدد2 ، 1983 .
25. مجلة المستقبل العربي ، عدد106 ، 1987 .
26. لغتنا في الحياة ، ص99 .
27. تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر .
28. دفاعاً عنا لعربية الفصحى 1981 ، ص243–250 .
29. ينظر : اللغة بين القومية والعالمية ، إبراهيم أنيس .
30. ينظر : حقيقة الأمة وعوامل حفظها وتمزقها ، جلال السيد .
31. القومية والفصحى ، عمر فروخ .
32. ينظر : مجلة المستقبل العربي ، العدد106 ، 1987 .